التطرف الفكري في حركة الإصلاح عند محمد بن تومرت

Intellectual Extremism in Ibn Tumert's Reformist Movement

L'extrémisme intellectuel dans le mouvement de réforme de Muhammad ibn Tumart

د. صفية ديب

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة -الجزائر

تاريخ الإرسال: 19-02-2021 - تاريخ القبول: 07-03-2021 - تاريخ النشر: 27-02-2023

ملخص

يعتبر ابن تومرت شخصية إصلاحية بارزة في الميدان الاجتماعي، والسياسي، والعقائدي بالمغرب الإسلامي. وكانت لحركته الإصلاحية المبنية على التعصب والتطرف، أثر عميق في الحياة الفكرية والسياسية المغربية في القرن (6هـ/12م)، وهو مؤسس دولة الموحدين، التي استطاعت توحيد منطقة المغرب لأول مرة في التاريخ، بل تجاوز ذلك حدود المغرب، ليصل إلى جنوب أوروبا غرب الأندلس. قد رمى ابن تومرت المرابطين بالكفر والتجسيم، وبالجمود الفكري، وبالانحلال الخلقي. أتخذ لفكرتي الإمام المعصوم، والمهدوية، وأسلوب الخداع، والمكر، والغلظة، والقتل، طريقا للوصول إلى السلطة. كما أعتمد في تحقيق أفكاره المتطرفة عن طريق منهجين متوازيين متكاملين، منهج تربوي، ومنهج ثوري، اقتناعا منه بأن التغيير الشامل لا يمكن أن يتم إلا بإتباعهما.

الكلمات الدالة: ابن تومرت؛ المرابطون؛ الموحدون المغرب الإسلامي؛ التطرف الفكري؛ حركة الإصلاح.

Abstract

Ibn Tumert is considered as a prominent reformist in the social, political and religious fields of the Islamic Maghreb. His extremist reformist movement had a tremendous impact on the Maghrebi intellectual and political life during the 6th century AH/12th Century AD. He founded Almohads State which succeeded in unifying the Maghreb region for the first time in history, and it extended its boundaries to reach southern Europe, west Andalusia. He accused the Almoravids of unbelief, embodiment, intellectual stagnation, and moral decay. Moreover, he adopted the ideas of the infallible Iman and Elmahdaouia, as well as deception style, mistakes, and killing to reach power. On the other hand, wanting to provoke a radical change and impose his extremist ideas, Ibn Tumert relied on the parallel

and complementary curricula, namely the educational and revolutionary ones. To what extent were the latter efficient means? Our paper tries to introduce the personality of Ibn Tumert and his relation with extremism, and it attempts to consider the factors that facilitated his extreme Reformist Movement.

Keywords: IbnTumert; Almoravids; Almohads; Islamic Maghreb; intellectual extremism; reformist movement.

Résumé

Ibn Toumert est une éminente personnalité réformatrice dans le domaine social, politique et idéologique au Maghreb islamique. Basé sur le fanatisme et l'extrémisme, son mouvement a profondément affecté la vie intellectuelle et politique au Maghreb, au 6ème siècle de l'égire (12ème siècle apr. J.-C.). Il est le fondateur de l'Etat des Almohades qui a unifié la région du Maghreb pour la première fois dans l'histoire, et même allé au-delà des frontières du Maghreb, au sud de l'Europe et à l'ouest d'El Andalous. Ibn Toumert a accusé les Almoravides d'apostasie, d'anthropomorphisme, d'inertie intellectuelle et de décadence morale. Il a utilisé les pensées de l'Imam Infaillible et du Mahdisme, ainsi que la méthode de la tromperie, la ruse, la rugosité et l'assassinat, comme moyens pour s'emparer du pouvoir. Pour imposer ses idées extrémistes, il a utilisé deux méthodes parallèles et complémentaires : la méthode pédagogique et la méthode révolutionnaire, étant convaincu que le changement radical ne surviendrait qu'après l'emploi de ces deux dernières

Mots-clés: IbnToumert; Almoravides; Almohades; Maghreb Islamique; l'extrémisme intellectuel.

مقدمة

يعتبر محمد بن تومرت من أبرز رجال السياسة الذين ربطوا السياسة بالدين في المجال النظري ونجحوا في تطبيق ذلك في المجال العملي على نطاق واسع. وهذا ما سرى عليه ابن تومرت في دعوته الإصلاحية المتطرفة، فكان ينكر على الناس بشدة وغلظة، مخالفا لمنهج -النبي صلى الله عليه وسلم - المبني على الاعتدال في طريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما استحل أيضا دماء المرابطين، من أجل تحقيق أهدافه المنشودة، للإطاحة بدولتهم ببلاد المغرب الأقصى.

وجاء الهدف من هذه الدراسة، هو الوصول إلى تقديم صورة واضحة عن هذا الرجل الداهية، والمحنك السياسي. والتعرف على منهجه الإصلاحي المتطرف، الذي بدأه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بدأ يتدرج في دعوته الإصلاحية عن طريق أساليب ووسائل متعددة، يغلب عليها التعصب، والشدة، واستعمال القسوة والحيل، للوصول

إلى السلطة. كما نهدف في هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على هذه الشخصية الغريبة التي أسالت حبر المؤرخين، ولازالت إلى يومنا هذا تجلب الباحثين والمؤرخين.

اعتمدنا في هذا البحث على منهجية علمية قائمة على استقراء وتحليل مختلف النصوص التاريخية المستقاة من مصادر متنوعة، وعلى المنهج الوصفي للإجابة عن التساؤلات الآتية: من تكون شخصية ابن تومرت؟ أو من هو ابن تومرت؟ وماهي مظاهر الإصلاح في دعوة ابن تومرت، وعلاقاتها بالتطرف؟ وماهي العوامل المساعدة في الدعوة الإصلاحية المتطرفة لابن تومرت؟ وما هو منهج الإصلاح المتطرف عند ابن تومرت؟ وما هو منهج الإصلاح المتطرف عند ابن تومرت؟

1. التعريف بابن تومرت

هو محمد بن عبد الله بن وكليد بن يمصل بن حمزة بن عيسى بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب تعريف البيذق (البيذق، 1971، ص12). ولد 491هـ 1091م وتوفي سنة 524هـ 1130م، بمنطقة سوس جنوب المغرب الأقصى، بطن من بطون قبيلة مصمودة الكبرى، أما مصدر كنيته تومرت فقيل إنها كانت لأبيه ومعناها باللسان البربري "الفرحة " فقد عرفه التاريخ باسمه محمد بن تومرت وبلقبه الديني الإمام المهدي (المراكشي، 1967).

ويذكر المراكشي أنه رأى بخط المهدي نسبته المتصلة بآل البيت (المراكشي،1967)، بينما يقول ابن خلكان " وجدت على ظهر كتاب النسب للشريف العابد بخط بعض أهل الأدب من عصرنا نسب ابن تومرت المذكور فنقلته كما وجدته (ابن خلكان، (د،ت)، ص56) ". بينما ذهب آخرون الى الشك أو القطع بانتحاله وبطلانه. فابن أبي زرع يمهد لذكر سلسلة النسب بقوله " هو على ما ذكره المؤرخون لدولتهم محمد بن عبد الله." ثم يعقب عليها بقوله " وقيل هو دعي في ذلك النسب الشريف (ابن ابي زرع، 1973، ص110).

رحل إلى المشرق للاغتراف من العلوم والمعارف على رأس المائة الخامسة (500هـ- 1106م) وقد ظل به زهاء عشر سنوات متنقلا بين الأمصار الإسلامية في سبيل طلب العلم. يذكر ابن خلدون على أنه" شب قارئا محبا للعلم "(ابن خلدون، 1992، ص266).

وقد أفاد من هذه الدراسة المشرقية علما غزيرا في العلوم الدينية والسياسية والعقلية، مما كان محظورا تعليمه ببلاد المغرب أيام حكم المرابطين، إذ كانوا يعدون الدراسات

الكلامية طريقا إلى الكفر (النجار، 1983). ومن الذين درس عنهم الشيخ أبو بكر الشاشي، فأخذ عنه أصول الفقه وأصول الدين، وسمع الحديث عن المبارك بن عبد الجبار، وأخذ عن الشيخ الكيا الهراسي الفقه والأصول والجدل والحديث، وعن الشيخ أبو بكر الطرطوشي أصول مذهب مالك (النجار، 1983).

أما فيما يخص مسألة لقاء ابن تومرت بالغزالي وأخذه العلم عنه فقد أثارت جدلا كبيرا بين المؤرخين فهم بين مثبتين للقاء ومشككين ونافين له على الإطلاق. (مجهول، 1963). أما أهم المشككين فالمراكشي حين قال:"وقيل إنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده والله أعلم ". ويذهب ابن خلدون مذهب المراكشي اذ يقول: "ولقي (ابن تومرت) فيما زعموا أبا حامد الغزالي". (ابن خلدون، ص 167).

ومن المحتمل أن ابن تومرت قد تتلمذ على الإمام أبي حامد الغزالي، فنجد عدة مرجحات ترجح وقوع اللقاء فعلا، فابن تومرت الذي شب محبا للعلم متلهفا للمعرفة قضى ما يزيد عن عشر سنوات متنقلا بين أمصار المشرق كيف لا يسعى إلى لقاء الغزالي موسوعة الفكر والثقافة. وبعد عودته الى المغرب كانت له دوافع إصلاحية وخاصة بعد أن تتلمذ على يد الفقهاء المشارقة حتى غدا على حد قول ابن خلدون " بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين " (ابن خلدون، ص267) متوكلا على الله عازما على إقامة شرائعه وسنة نبيه" (ابن أبي زرع، 1999، ص 111) محمد صلى الله عليه وسلم.

2. عوامل وظروف نشأة الفكر التطرف عند ابن تومرت

2.1 العامل الشخصي

لاشك أن شخصية المهدي استهوت الناس لما امتاز به من شجاعة وأخلاق سامية وإتقان الدرس، وتصميم على الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وهو عالم في أصول الفقه وأصول الدين (ابن القطان، (د،ت))، لما روى من أخبار فرار الطلبة من جميع مدن المغرب إليه رغبة في سماع دروسه المتصفة بالإلمام، والدقة وسرعة التأثير لبراعته في اختيار الكلمات وانتقاء الأسلوب، فطارت سمعته إلى المدن قبل حلوله بها (البيذق، 1974).

2.2 العامل البشري (قوة مناصريه)

استطاع ابن تومرت أن يستميل العامة بفضل ما اكتسبه من القدرة العلمية، ويتضح لنا هذا جليا من خلال ما خلفه لنا من تعاليم ومبادئ دينية وسياسية، إلى جانب هذا قوة شخصيته مما كان يلقيه من دروس أينما مر في المساجد والمدن، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر، كاسبا بذلك أنصارا له، إذ طفق ابن تومرت بعدها يوجه الدعاة لنشر دعوته إلى مختلف القبائل، وقد اسماهم بالموحدين والمؤمنين (حركا، (د، ت)) والذين ما انفكت طاعتهم تزداد ومحبتهم تقوى وتعظيمهم يشتد له، الشيء الذي شجعه على السير قدما في نشر دعوته للإطاحة بدولة المرابطين مادامت القوة متوفرة لدى مناصريه وفتنتهم به متزايدة وطاعتهم له عمياء (المراكشي،1967).

3. مواطن الفكر التطرفي في الإصلاح عند ابن تومرت

1.3 التربية والتعليم

أولى المهدي الجانبين التربوي والتعليمي أهمية بالغة وخصص لهما جهدا معتبرا، هادفا إلى تكوين مجتمع جديد انطلاقا من هذه الجماعة المحيطة به الملتزمة بدعوته، وكان يرسو إلى دعائم عقائدية وأخلاقية واجتماعية حيث شكل التكوين جانبا أساسيا في ثورته التي شنها ضد المرابطين، والذي من أجله يمارس نشاطه السياسي والعسكري، فهدف الثورة بالنسبة إليه هو تعميم تصور عقائدي صحيح، وعلاقات اجتماعية سليمة تقوم على أسس إسلامية (النجار، 1983).

كما عمل ابن تومرت على نشر عقيدته بعد أن أنشأ رابطة للعبادة ومقرا للعلوم (ابن خلدون، 1992) ومركزا لتدبير أمور الرعية وتنظيم المجتمع الموحدي، وقتال المرابطين، ولم يكن نشر العقيدة بالأمر الهين، فقد كان الجبليون أميين يمارسون ديانة بسيطة مليئة بالخرافات القديمة، وكانوا على غير استعداد لفهم رسالة المهدي فضلا على عدم إلمامهم بالعربية، لذلك فابن تومرت وطلبته اضطروا إلى استعمال اللسان البربري (روجي، 1982).

ويذكر ابن زرع في هذا المجال أن ابن تومرت" علمهم التوحيد باللسان البربري وجعل لهم فيه الأشعار والأحزاب والسور وقال لهم : من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بمؤمن وإنما هو كافر، لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته، فصار هذا التوحيد عند القبائل كالقرآن العزيز، لأنه وجد قوما جهلة لا يعرفون شيئا من أمر الدنيا، ولا من أمر الآخرة،

فاستهواهم بكفره، وغلبهم بعذوبة لفظه ولسانه ومكره، حتى كانوا لا يذكرون غيره ولا يمتثلون أمرا إلا أمره، يستغيثون به في شدائدهم، ويتبركون بذكره على موائدهم، ويقولون هذا الإمام المعلوم والمهدي المعصوم على منابرهم، فدخل الناس في طاعته أفواجا، واتخذوا سنة شريعته منهاجا بذكره (ابن أبي زرع، 1973).

كما سهل لهم وسائل التعليم بنفسه، ففي مجال تعليمهم الآيات القرآنية، وسوره بالعربية التي يجهلونها لضرورتها لأداء الصلاة، لجأ إلى تقسيم أم القرآن "الفاتحة" وسمى بكل كلمة منها رجلا، ثم أقعدهم صفا واحدا فقال اسمك الحمد لله والثاني رب، والثالث العالمين، وهكذا حتى تمت كلمات السورة، ثم قال لهم لا يقبل الله لكم صلاة حتى تجمعوا هذه الأسماء كلها على نفسها في كل ركعة من الصلاة، وهكذا سهل عليهم حفظها فحفظوها (ابن أبي زرع، 1973).

كما كان يعظهم في كل وقت، ويذكرهم، والغائب عن الحضور يؤدب وإن تمادى في الغياب قتل، والذي لم يحفظ حزبه عذب بالسياط، فإن ظهر منه عناد وترك الامتثال للأوامر قتل (ابن القطان، د،ت). وقد حرص على تبليغ المضمون والإقناع به بطريقتين.

2.3 التأليف

استعمل ابن تومرت في نشر دعوته طريقة التأليف، منها كتاب" أعز ما يطلب" "وكتاب "الموطأ ". وكذا تصنيف الرسائل، وتأليف المرشدة التي تعتبر من أهم تأليفه في العقيدة، وتشير الكثير من المصادر إلى أن بعض هذه التأليف كانت باللهجة البربرية، بالإضافة إلى الدعوة الشفوية التي كان يخاطب فيها الأقوام بما يفهم. ومن مؤلفاته كتاب "أعز ما يُطلب"، فقد يظن الكثير من الباحثين أن المجموع المسمى " بأعز ما يطلب " والمنسوب إلى محمد بن عبد الله بن تومرت هو كتاب واحد منفرد من تأليفه، وهذا الظن أصبح هو المتداول بين الناس، والصحيح أنه مجموعة من كتب ورسائل وتعاليق للمهدي بن تومرت، في الأصول، والحديث، والفقه، والتوحيد، والجهاد، والسياسة، كما ورد في الصفحة نفسها عبارة" فيه من الكتب أعز ما يطلب الكلام في الصلاة الدليل الكلام في العموم والخصوص. فهاتان العبارتان تدلان على أنه مجموعة كتب وليس كتابا واحدا." (ابن تومرت، 1903، ص2)

وقد سمي الكتاب بأول عبارة وردت في باب" العلم "إذ يقول ابن تومرت في مستهل هذا الباب: "أعز ما يطلب، وأفضل ما يكتسب، وأنفس ما يدخر، وأحسن ما يعمل العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير، فهو أعز المطالب، وأفضل المكاسب وأنفس الذخائر، وأحسن الأعمال". (ابن تومرت، 1985، ص2) والكتاب لم يصل إلينا من المهدي مباشرة، والذي نقل إلينا تعاليم المهدي وآراءه، ودونها لنا هو خليفته عبد المؤمن بن علي الموحدي.

وقد جاء في أوله من تعريف به، يشتمل على العبارات التالية: "سفر فيه جميع تعاليق الإمام المعصوم المهدي المعلوم مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن علي، أدام الله تأييدهم وأعز نصرهم ومكن سعودهم". (ابن تومرت، 1985، ص1). كما يفيد ما ورد في آخره "تم كتاب الجهاد بحمد الله وحسن عونه، وبتمامه كملت جميع تعاليق الإمام المعصوم المهدي المعلوم (ابن تومرت، 1985، ص1).

مؤلف آخر ينسب إليه وهو كتاب "محاذي الموطأ"، نشر هذا الكتاب في الجزائر اعتمادا على نسخة مخطوطة بالمكتبة الوطنية بالجزائر، وأطلعت على المخطوطة بالمكتبة الوطنية بالحامة التي يرجع تاريخ نسخها إلى سنة 579 هجري، (ورقمها 424). والمخطوطة من ورق الرق، تحتوي 290 صفحة مكتوبة بالخط المغربي وبالحبر البني، تسير في عمومها على طريقة وضع عنوان كبير مذهب، والمراد بحثه فقهيا، ثم سرد الأحاديث النبوية التي تعرضت لهذا الموضوع، وكل حديث يبتدئ بحروف مكتوبة بالحبر الأزرق. وقد تناول ابن تومرت فيه أبوابا في العبادات والمعاملات والحدود (ابن تومرت، مخطوطة رقم،424).

إضافة إلى تأليف "المرشدة وهو نص وجيز لا يتعدى 20 سطرا، و قد وردت في كتابه "أعز ما يطلب،" وتعتبر خلاصة لفكره العقائدي، ولعلها أكثر مؤلفات المهدي انتشارا في المغرب والمشرق، وقد لاقت إقبالا كبيرا من شراح الغرب الإسلامي الذين أضفوا عليه طابعا أشعريا محضا، وهدف هؤلاء الشراح إلى توضيح معانيها والكشف عن مضامينها، وكان المهدي وأتباعه حريصين على إشاعتها بين الناس ومضمونها يبدأ :" اعلم أرشدنا الله وإياك أن يجب على كل مكلف أن يعلم أن الله واحد في ملكه، خلق العالم بأسره، العلوي والسفلي، والعرش والكرسي والسماوات والأرض". إلى أن يختم "وليس كمثله شيء وهو السميع العليم. (ابن تومرت، 1903، ص154)،"(السكوني، 1993، ص109).

والملاحظ أنها شرحت من طرف الكثير من الفقهاء، من أمثال أبي عبد الله محمد بن يحي الشيباني الطرابلسي، وأبو عبد الله محمد بن عباد، ومحمد بن يوسف السنوسي، وأبو محمد عبد الله الصنهاجي عرف بالخراط. (غراب، 1977).

كما ذهب ابن تومرت أيضا إلى تصنيف الخطب الداعية إلى الجهاد، فقد استطاع أن يؤثر على أتباعه بفضل فصاحته وبلاغته، كأسلوب من أساليب الدعوة، وإنذار العصاة، والطعن في المرابطين ونسبهم إلى الكفر والتجسيم والدعوة إلى خلع طاعتهم (ابن أبي زرع، 1973).

والظاهر أن المغرب في ذلك الوقت لم يكن فيه عدد كبير من الوعاظ يفوقون ابن تومرت، فلابد لمن يستولي على القلوب أن يرزق موهبة خطابية، ويذكر ليفي بروفنسال أن العلماء المغاربة رموا المهدي بالجنون مع وصفهم له بالعفريت لإلمامه باللغة وغريبها (بروفنسال، (د،ت)).

ومن أعظم مزايا ابن تومرت العلمية مقدرته البارزة في إتقان اللغة العربية واللهجة البربرية، حيث استعملها في وعظه ومخاطبته لقومه (عنان، 1964) ومن هنا ندرك أن العامل اللغوي لم يكن عاملا مفرقا للوحدة الإسلامية، وإنما مكملا لها، وهو ما ينفي صفة العرقية في الدعوة الإسلامية، ويؤكد كذلك أن تاريخ المغرب لم يشهد ما يدعيه البعض من التضاد بين اللغة العربية واللهجة البربرية، وإنما كان التعامل قائما بينهما لخدمة الدعوة الإسلامية.

تضاف إلى تلك المؤلفات المذكورة آنفا تأليف الرسائل وهي أيضا من الوسائل التي اعتمدها ابن تومرت في نشر دعوته الإصلاحية بغية دعوة القبائل لطاعته ومحاربة المرابطين، والتأثير على خصمه المبتعد عن المنهاج الصحيح ودعوته إلى إقامة الشرع. وقد أوكل مهمة توزيعها في القرى وبين القبائل إلى الطلبة (ابن القطان، (د،ت)) وقد ألحقت بهذه الدراسة رسالة من رسائله المصبوغة بالتشدد والتعصب، والتي بعثها إلى السلطان علي بن يوسف المرابطي داعيا إياه إلى إقامة الشرع الإلهي. وقد استهلها ابن تومرت في قوله: "إلى القوم الذين استزلهم الشيطان وغضب عليهم الرحمان، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية، اللمتونية. أما بعد: قد أمرناكم بما نأمر أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وإن الدنيا مخلوقة للفناء والجنة لمن اتقى والعذاب لمن عصى، وقد وجب لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أديتموها كنتم في عافية، وإلا نستعين بالله على

قتلكم، حتى نمحو أثاركم، ونكدر دياركم، ويرجع العامر خاليا، والجديد سالبا، وكتابنا هذا إليكم إعذار، وقد أعذر من أنذر. والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضى" (مجهول، 1936، ص 90-91).

3.3 الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اشتهر ابن تومرت آمرا بالمعروف وناه عن المنكر قبل أن يكون مصلحا للعقيدة والشريعة، باعتبار أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، لقوله تعالى " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر " (آل عمران، آية 110) من هنا كان هذا المبدأ محورا لفكره المتطرف وعمله، ويتجلى ذلك من خلال مواجهته المتشددة لظاهرة شرب الخمر إذ تناول في كتابه "أعز ما يطلب" ظاهرة الخمر وخصص لها فقرات عديدة في كتابه للخمر والمسكرات، ومن الناحية العملية جعل القضاء على هذه الآفة شغله الشاغل، إذ شن حملة، ودعا إلى مطاردة كل من له صلة برواجها، شده في ذلك تحريم الخمر في الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، مستعرضا ما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث وأطلق هذا التحريم على جميع المشروبات المسكرة سواء كانت مصنوعة من العنب، أو التمر، أو العسل، أو القمح، أو الشعير، وهي محرمة حسب رأيه قليلها أو كثيرها، ومن الواجب إراقتها وكسر أوانيها .(ابن تومرت، 1985)

ويصف لنا البيذق، وكان شاهد عيان على عصر المرابطين، تنكر ابن تومرت لبيع الخمر علنا قائلا: " ولما وصل باب البحر فأهرق فيها الخمر وقال المؤمن ثمار والكافر خمار ". (البيدق، 1974، ص323)

وقد استمر ابن تومرت في طريقته المتشددة والمتطرفة في محاربة ظاهرة الخمر علنا كتكسير أواني الخمر أينما وجدها وهو يؤيد أفعاله بمختلف الأحاديث وأقوال الصحابة كقوله: " عن ابن أنس بن مالك أن أبا طلحة سأل النبي – صلى الله عليه وسلم – عن أيتام ورثوا خمرا، قال: أفلا أجعلها خلا، قال: لا" (مسلم، صحيح، 2005، باب تحريم الخمر، رقم الحديث 1983، ص 856)، (ابن تومرت، 1985، ص376).

كما وجه أيضا حملته التعسفية الحاقدة ضد المرابطين بسبب ما أحدثوه من المناكر والمغارم (ابن تومرت، 1958)، يذكر البيذق وصفا لحادثة محاربته لظاهرة الاختلاط بين الجنسين، إذ قال " فلما كان يوم عيد الفطر اختلط الرجال بالنساء في الشريعة(وهي

ساحة تقع خارج المدينة (البيذق،(د،ت))، فلما رآهم الإمام دخل فيهم بالعصا يمينا وشمالا، (البيذق،(د،ت)) كما أبدى رفضه في مبالغة النساء في إظهار زينتهن ومبالغة الرجال في التشبه في ارتداء الملابس الزاهية (البيذق،(د،ت)) ناقدا ومصلحا ما يشهده في مختلف المجالات، مما يتنافى مع الدين بطرق عنيفة ومتشددة بعيدة عن أسلوب اللين.

ومن صور تزمته في أمره بالأمر بالمعروف ونهيه عن المنكر، يذكر ابن الأثير أن ابن تومرت التقى بأخت أمير المسلمين علي بن يوسف (ت 537 / 1143م) مع جوارها سافرات، فأمرهن بستر وجوههن، وضرب دوابهن، فسقطت أخت أمير المسلمين، ودخلت تشتكي أمرها إلى أخيها الذي أمر بإحضاره إلى القصر ليتبين أمره وأحضر الفقهاء لمناظرته. (ابن الأثير، 1966، ص130).

هكذا انطلق ابن تومرت رافعا شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في أسلوب إصلاحي يتنافى إلى ما يدعو إليه الإسلام من الرفق والحكمة والموعظة الحسنة، التي حثنا عليها الإسلام، ومارسها الحبيب المصطفى -صلى الله عليه وسلم-في نشر دعوته.

أماما أسلوبه في الإصلاح فكان قائما على التعليم والشرح والإرشاد - كما مر بنا سابقا - والذي يتطور إلى حد استخدام الأساليب العنيفة في تحقيق أهدافه وقد أحاط نفسه بهالة من التقديس، وأوحى إلى أتباعه أنه الإمام المعصوم، والمهدي المعلوم، الذي يملأ الأرض عدلا، بعد أن ملئت جورا، وبايعه أصحابه في حوالي سنة (515هـ / 1121م). (ابن القطان، (د،ت)). ومن نتائج محاولات التغيير الإصلاحي المتطرف التي قام بها ابن تومرت تعرضه لغضب العامة واعتدائها، فضلا عن سخط الحكام عليه ومطاردته.

4.3 بعث الثقة بالنفس

كان أتباع المهدي عميق الإيمان يؤمنون، بأنهم أصحاب حق، وفي سبيل ذلك جعل يذكر لهم جملة من الأحاديث النبوية في الطائفة المقاتلة في سبيل الحق، وذلك في الحديث الذي رواه مسلم، ونصه "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة" (مسلم، (د،ت)، ص 1524).

وقد تساءل عبد الله علي علام عن علاقة هذه الطائفة بابن تومرت وبأنصاره مع أن كلمة " الطائفة" غير محددة، فمعناها عاما وشاملا، لكن ابن تومرت خص بها ذاته ومناصريه

دليلا على دهائه، إذ أخرجها من الدلالة على عموم المسلمين الغيورين على دين الله لتمكين دعوته من النجاح (علام، 1964) فهو يقول :" لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة "(مسلم، (د،ت)، ص1525) ويؤول كلمة الغرب بأنها المغرب، إذن فهو يعتبر نفسه وتابعيه الطائفة المعنية والمبشر لها، مؤكدا وملتمسا من السنة النبوية وسيلة مستدلا في تبيان ذلك بقوله -عليه الصلاة والسلام-"لا تزال طائفة من بالمغرب ظاهرين على الحق لا يصدهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وأنتم الذين يفتح الله بكم الروم، ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى بن مريم، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة " (ابن تومرت، 1985،ص269)

وعلى هذا النسق كان يزرع في أتباعه الثقة بالنفس، ويصنع منهم قوة وشجاعة ظاهرة للأعداء المرابطين الطعن في الأعداء: عمد المهدي إلى الطعن في المرابطين وبين أنهم أهل باطل مآلهم الخذلان والهزيمة، موردا جملة من الأحاديث مفادها أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا (ابن تومرت، 1985)

وجملة أخرى تبين علامات الطائفة التي ستكون على يدها غربة الإسلام ليخلص آخر الأمر إلى الإعلان بأن هذه الطائفة هي طائفة المرابطين لانطباق العلامات عليها، فهي الزائغة عن الحق الحائدة عن الطريق (ابن تومرت، 1985).

وعلى الرغم مما في هذه التهم من مبالغة وغلو، فقد استطاع المهدي التأثير بها على الناس وتحطيم معنوية الدولة المرابطية وتهيئة نفوس المغاربة لاستقبال مبادئ الدعوة الموحدية بحماس، ومن هنا يتضح أن الدعوة التومرتية ودعايتها أشد أثرا من الحروب الدامية في إقامة صرح الدولة الموحدية، ومن ثمة فإنه يخصهم في كتابه " أعز ما يطلب" بفصل هو بمثابة تشهير للخصومة، والبغض والدعوة إلى تحريم طاعتهم والحض على جهادهم في عدة أبواب منها: "باب في بيان طوائف المبطلين من الملثمين والمجسمين"، (يعني المرابطين)" جميع علاماتهم ظاهرة منها ما ظهر قبل مجيئهم خمس، أحداهن أنهم الحفاة، والثانية أنهم العراة، والثالثة أنهم العالة، والرابعة أنهم رعاة الشاه والبهائم، والخامسة أنهم جاهلون بأمر الله" (ابن تومرت، 1985، ص258). ويذكر في باب طويل والمعنون" باب فيما أحدثوه من المناكر والمغارم، وتقلبهم في السحت، والحرام يأكلون فيه ويشربون، يغدون وفيه ويروحون، وتجسمهم وكفرهم أكبر". (ابن تومرت، 1985، ص261)

هذا الادعاء الذي رمى به ابن تومرت دولة المرابطين، لم يثبت التاريخ منه سوى انتشار المناكر في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف، كما ذكرنا آنفا.

والملاحظ أن ابن تومرت قد بالغ في اتهام المرابطين، والافتراء عليهم وتضخيم أخطائهم، فيصورهم كالمجوس المشركين الكفار، ويعقد لذلك بابا عنوانه " وجوب مخالفتهم (المرابطون) وتحريم الاقتداء والتشبه بهم"(ابن تومرت، 1985، ص263). ثم يأتي بحديث بأقوال منها خالفوا المجوس وكذلك المجسمون الكفار والمتشبهون بالنساء" (ابن تومرت، 1985، ص 263) في تغطية الوجوه بلا تلثم ولا تنقيب. وكان ابن تومرت بارعا في دعايته ضد المرابطين، فقد كانوا يتبعون عادة توارثها الأبناء عن الآباء، إذ كانوا يلبسون كما يلبس الطوارق اليوم اللثام ومن ثم سموا بالملثمين (ألفريد، 1987). في حين تسفر نساؤهم عن وجوههن (علام، 1971).

استغل ابن تومرت كل هذا ضدهم وصورهم فاسدين حيث يقول "والتشبه بهم حرام " لما رواه ابن عباس عن النبي –صلى الله عليه وسلم –قال " لعن الرسول المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء "(البخاري، 1929، ص 2207). شملتهم اللعنة جميعا (ابن تومرت، 1985، ص264).

إذ أن تفسيره لحديث التشبيه من السطحية، فاللعنة للرجال المتشبهين بالنساء تتجاوز اللباس إلى الطباع والسلوكيات من تخنث وليونة. نجد المؤرخين يصفونهم بخشونة الطبع، وقوة المراس، مستدلين بمعركة من أهم المعارك التي أحرزوا فيها النصر، ألا وهي "الزلاقة" الشهيرة سنة (479هـ / 1086 م)، ويردون تلثمهم إلى جانب العادات والتقاليد المتوارثة أبا عن جد. (علام، 1971). ومن خلال هذا يبدو أن ابن تومرت، قد ابتعد عن الصواب، فيما وصم به المرابطين من تشبه بالنساء وتكفيرهم كالمجوس والمشركين (ابن تومرت، 1985).

وإمعانا في نقد المرابطين والحط من شأنهم اصطنع لهم ألقابا مشينة مثل " الزراجنة" تشبيها لهم بطائر أسود البطن أبيض الريش، يسمى الزرجان، لأنهم بيض الثياب سود القلوب، كما مثلهم بالحشم لتلثمهم تلثم النساء (ابن القطان، (د.ت)) . وكان اللقب الذي صار أكثر انتشارا هو المجسمون، وسبب تلقبيهم بالمجسمين فيما ذكره البيذق أن ابن تومرت قال للموحدين " ما يقول المرابطين بعد أنسمع منهم كلاما ؟، قالوا له لقبونا، قال: وكيف

لقبوكم "؟، قالوا يقولون خوارج، قال سبقونا بالقبح، لو كان خيرا لأحجموا عنه، وما سبقونا إليه لقبوهم أنتم قولوا لهم أنتم أيضا المجسمون"(البيذق، 1971، ص71).

وما دام ابن تومرت قد أثبت أن المرابطين أعداء الله، كان من الضروري أن يحتم على الموحدين عدم طاعتهم، والخروج عنهم ويقول في باب " تحريم طاعتهم (يعني المرابطين) وإتباع أفعالهم " .يدعو ابن تومرت في هذه المرحلة الموحدين إلى نبذ طاعة الحكومة المرابطية والخروج عنها، إذ أن الله فرض على المسلمين طاعة أولى الأمر، وقرنها بطاعته جل شأنه وطاعة رسوله الكريم إشارة إلى أن طاعة أولى الأمر ضرورية بها تستقيم أحوال المجتمع امتثالا لقوله تعالى : "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم" (النساء، الآية58) (ابن تومرت، 1985) .

والظاهر أن ابن تومرت لم يدع أتباعه إلى الثورة على المرابطين، وشق عصا طاعتهم، بل فضل رميهم بالكفر، والشرك، الشيء الذي يجردهم حتما من حق ولاية أمر المسلمين، وبهذا يكون قد مهد بطريقة ذكية إلى الخروج عنهم متنقلا بعدها إلى مرحلة أكثر حسما من مراحل الدعاية، وهي تحريض الأتباع على مقاتلة المرابطين، حتى يمكن للدعوة الموحدية أسباب الاستقرار.

ومما لا شك فيه، أنه كان للمهدي جواسيس يرافقونه في كل صغيرة وكبيرة، مما جعل هذا الرجل مطلعا على ظواهر الأمور وبواطنها، ومبعثا للرهبة في النفوس، ولهذا نرى أصحابه ينفذون أوامره مهما بلغت صعوبتها خوفا من العقاب، وهكذا نجده مهاب الجانب سيدا مطاعا (مؤنس، 1980)، إلى درجة أنه إذا أمر رجلا من أتباعه بقتل صاحبه أو أخيه أو أبيه لسارع إلى تنفيذ الأمر (المراكشي، 1967)، كما كان صارما وقاسيا في تطبيق العقوبات على المخالفين لأوامره.

وإذا أردنا تحليل دوافع هذه القسوة، لوجدنا أنها راجعة إلى نشأته وطبيعة بيئته المصمودية الجبلية، وإلى الغاية السياسية المنشودة، والتي أملت على ابن تومرت الحزم والشدة، كما أملاها عليه عموم الفساد وتدهور أحوال المسلمين وبعد أولى الأمر منهم في تطبيق الشريعة. وهذه الأحوال وفي مجملها لم تسمح باستعمال اللين، بل لقد عد ابن تومرت تطبيق العقيدة دون شدة وحزم تخاذلا في حق الدين.

5.3 أسلوب الثورة وإعلان الجهاد

بادر ابن تومرت باستعمال العنف اللفظي قبل إعلان العنف الثوري، حيث تميز أسلوبه الثوري بالاقتضاب في العبارات ووصف المرابطين كونهم أصحاب الفتن فهم الرؤوس الجهلة، والملوك الفجرة، والدجاجلة الطغاة. وفي باب تحت عنوان "وجوب جهاد من ضيع السنة ومنع الفرائض" عقد قياس مفاده أن محاربة الكفرة المجسمين أولى من محاربة مانعي الزكاة، حيث ذكر محاربة أبي بكر الصديق لهؤلاء وأردف أن التجسيم والشرك أحق بالمحاربة من مانعي الزكاة. (ابن تومرت، 1985)

كما جعل ابن تومرت المرابطين منافقين ومفسدين وجاهلين، والله حرم على المؤمن طاعة المنافق والمفسد والجاهل امتثالا لقوله تعالى "ولا تطع الكافرين والمنافقين" (الأحزاب، الآية 01).

كما جعلهم قوما يتبعون الهوى ويعدلون عن الهدى وجعلهم معتدين مناعين للخير والله حرم طاعة هؤلاء، إذ يقول جل شأنه " يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين" (آل عمران، الآية 149) (ابن تومرت، 1985).

ويبدو أن هذه العبارات محددة لصفات الخصم وعيوبه، المراد الانتصار عليه، وفي سبيل ذلك اقتبس ابن تومرت ما من شأنه إقناع أتباعه بانطباق تلكم الصفات على المرابطين وأنصارهم، موظفا حديث أشراط الساعة الذي يقول:" إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة". (الإدريسي، 1991، ص 112)

والجهاد عند ابن تومرت له مفهوم واسع، يتعدى محاربة الكافرين وأهل البدع، إلى محاربة الرافضين إلى الانضمام إلى الدعوة المحمدية، ويرى في ذلك أن جهاد الكفرة المرابطين، أولى من جهاد النصارى والكفرة. (بوروبية، 1982)

وهكذا راح ابن تومرت يتفنن في الدعاية والتحريض، مستعملا كل الوسائل الممكنة لإيغار صدور الموحدين. ضد المرابطين لمقاتلتهم لإتيانهم المناكر، وارتكابهم أنواع الفجور (ابن تومرت، 1985). والظاهر أن ابن تومرت الرجل المفكر والسياسي الداهية، لم يتخذ القوة أساسا في دعوته الإصلاحية، بل تدرج في بث الدعاية ضد المرابطين، وإلحاق كل صفات الكفر بهم، من تجسيم وفساد عقيدة، إلى أن وصل بالدعوة إلى الخروج عنهم ومحاربتهم حتى يؤمنوا على يد خليفته عبد المؤمن بن علي الكومي التلمساني، المتوفى سنة (558هـ/ 1163 م).

خاتمة

وعصارة ما قدم حول الفكر الإصلاحي لابن تومرت، وأساليب دعايته ضد الدولة المرابطية، يبرز لنا أنه الرجل الماهر ذو الحيلة الواسعة والدهاء السياسي الكبير، وعمق ثقافته الدينية، ودرايته الاجتماعية والنفسية ببني جلدته، فرغم مبالغته في مواضيع كثيرة، في اتهامهم بكل ما يشين، فالتاريخ لم يثبت سوى انتشار بعض المناكر في عهد الأمير المرابطي علي بن يوسف- كما ذكرنا سابقا -، إلا أنه تمكن بدعايته .إلا انه تمكن بدعايته هذه تحفيز الموحدين، ودفعهم إلى استعمال نار الحرب ضد المرابطين، التي انتهت بإسقاطهم سنة (541هـ/1163م) . ولم يتورع ابن تومرت في سفك الدماء وتكفير المسلمين، واستخدام الأساليب الملوثة من الكذب، والخداع والتشدد والتعنيف، والتطرف من أجل الوصول إلى هدفه.

والملاحظ أيضا، أن الدعوة الإصلاحية لابن تومرت، شملت كل مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية. وقد عمد المهدي أن يحقق هذا الشمول بمنهجين متوازنين، منهج تربوي، ومنهج ثوري، كما بينا سابقا، اقتناعا منه بأن التغيير الشامل، لا يمكن أن يتحقق إلا بانتهاج هذين المنهجين. كما تجدر الإشارة أن سذاجة المجتمع المغربي في عصر الموحدين ساعد على تغلغل معتقدات التومرتية المنحرفة في أوساطه.

وبعد تحقيق مهام عديدة من إخضاع المصامدة، ومحاربة المرابطين، وتنظيم حركة الموحدين، واعتناق سكان تلك الجبال لعقيدة التوحيد، توفى ابن تومرت بعد مبايعته بـ: 9 سنوات (515، 524هـ/ 1130، 1121م، لينتهي الأمر بإسقاط دولة المرابطين في عنفوان شبابها سنة (541هـ/ 1147م).

المراجع

1. القرآن الكريم
2. ابراهيم حركات، (د،ت). المغرب عبر التاريخ من عهد ما قبل التاريخ إلى نهاية الدولة الموحدية، ج 1، الدار البيضاء المغرب.
3. ابن الأثير عز الدين، 1966. الكامل في التاريخ، ج3، بيروت، لبنان.
4. ألفرد بال، 1987. الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، من الفتح حتى اليوم، ترجمة عن الفرنسية، عبد الرحمان بدري، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت ن لبنان.
5. البخاري أبوعبد الله محمد، 1992.صحيح البخاري، ج5، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر.

6. برونفسال ليفي، (د،ت). نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى، الرباط، المغرب.
7. بورويبة رشيد، 1982. ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
8. البيذق أبو بكر أحمد 1974. أخبار المهدي بن تومرت تقديم وتعليق عبد الحميد حاجيات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.
9. البيذق أبو بكر أحمد، 1971. المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب.
10. ابن تومرت أبو عبد الله، 1903. أعز ما يطلب، نشر لوسياني، طبعة فونتانة الجزائر، الجزائر.
11. ابن تومرت أبو عبد الله، 1985. أعز ما يطلب، تقديم وتحقيق عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
12. ابن تومرت عبد الله، رقم 424. الموطأ، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر.
13. حسن مؤ نس، 1980.معالم تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.
14. ابن خلدون عبد الرحمن، 1992. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، لبنان.
15. ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد، (د،ت). وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان، ج 5، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت لبنان.
16. الإدريسي عبد الهادي، 1991.الإمامة عند ابن تومرت، دراسة مقارنة مع الإمامة الاثني عشرية، تقديم أبو عمران الشيخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
17. روجي لي تورنو، 1982.حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12، 13، ترجمة أمين الطبي الدار العربية للكتاب تونس.
18. ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن عبد الله، 1973. الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس، اعتنى بتصحيحه وطبعه كارل تونبرغ، المغرب.
19. ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن عبد الله، 1999. الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب تاريخ فاس، ط2، راجعه عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الملكية، الرباط، المغرب.
20. السكوني أبو عبد الله محمد بن خليل، 1993. شرح مرشدة محمد بن تومرت، دراسة وتحقيق يوسف احنانا، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان.
21. عبد الله علي علام، 1964.الدعوة الموحدية بالمغرب، دار المعرفة، القاهرة، مصر، 1964.
22. عبد الله علي علام، 1971.الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف القاهرة، مصر
23. عنان محمد عبد الله، 1964. عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ج1، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة.

24. غراب أسعد، 1977. مرشدة ابن تومرت وأثرها في التفكير المغربي، أعمال الملتقى الثالث التونسي والإسباني، 11 – 17 أفريل، قرطاج، تونس.
25. ابن قطان أبو الحسن الفاسي، (د،ت) .نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق علي مكي، مطبعة جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب .
26. مجهول، 1936.الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، أعتنى بنشره وتصحيحه علوش، الرباط، المغرب
27. المراكشي عبد الواحد، 1967. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، مصر
28. مسلم بن الحجاج القيشري، (د،ت). صحيح مسلم، دار الكتاب العصر، دار الكتاب اللبناني مطبعة دار أحياء الكتب العربية.
29. المؤلف نفسه، 2005، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر.
30. النجار عبد المجيد، 1983. المهدي بن تومرت، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان.
31. النويري أحمد بن عبد الوهاب، (د،ت). تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف، دار النشر المغربية، الدار البيضاء.